فضل العطاء على العسر

لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري

المتوفى ٣٨٢هـ

تحقيق

أحمد فريد المزيدي

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. كتب الشيخ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل الأديب إلى بعض الرؤساء:

«جعل الله السيد في حيز السلامة ومحلة الشكر، كما آتاه من الفضل، ما تدانى دونه شأو الوصف والذكر؛ ووفر الفواضل عليه، كما قيض الفضائل له؛ ولا أزال عن الكرام ظله، ولا أزل عن الشرف رحله، وأبقاه مذيلاً بالتمام مُطرزًا بالإكرام، ما رسا ثبير[1] واختلف ابنا سمير[2] إنه حميد مجيد فعال لما يريد».

الجود: أيد الله السيد، إذا كان عن يسار وجدة، وإثراء وسعة، واجب لا يسع الإخلالُ به، ولا يجمل التقصير فيه والمشاهد أن المرء إذا أمسك مع الكثرة، وبخل مع الثروة، تناوله اللوم من كل وجه، وانتزع إليه الذم من كل جانب، فهو المدفوع إلى السماحة، والمحمول على الإنالة؛ ليبعد من اللوم، وينزه عن الذم. وليس يدُل بذله وإن جزل، وبره وإن كمل على كرم أصليّ، وسماح عُنصُري، كما يدل عليه جُهد المُقل، ومواساة المخل[3] ومن لم يعط من اليسير، لم يعط من الكثير، وقد قلت:

من لم يواسك في قليل لم يواسك في كثير

والحق يلزم في الكثير وليس يسقُط في اليسير.

وقال الأول:

ليس من فضل مال إنما الجود للمُقل المواسي

والعرب تقول: «أعط أخاك من عقنقل الضب» (وعقنقل الضب مُصرانه[4]. أي أنك إن لم تملك إلا معى ضب فلا تبخل به على أخيك، واجعل له منه قسما، وصير له فيه سهمًا). ويقولون: «أخوك من آساك»، وقال رسول الله ﷺ «**اتقوا النار ولو بشق**

---

(١) ثبير: جبل من أعظم الجبال، يقع في الطريق بين مكة وبين جبل عرفة.

(٢) ابنا سمير: يقال: سمير الدهر وأبناؤه: الليل والنهار، وهذان مثلان يدلان على الدوام والثبوت.

(٣) يعني المحتاج الفقير، يقال: أُخل به بالبناء للمجهول: أي صار ذا خلة وفقر وحاجة.

(٤) أي أمعائه.

تمرة»[١].

وأخبرنا أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد، عن الجوهري، عن المنقري، عن الأصمعي، عن بعض العباسيين، قال: كتب كلثومُ بنُ عمرو إلى رجل في حاجة.

بسم الله الرحمن الرحيم، أطال الله بقاءك، وجعله يمتد بك إلى رضوانه وجنته، أما بعد، فإنك كنت روضة من رياض الكرم تبتهج النفوس بها وتستريح القلوب إليها؛ وكنا نُعفيها من النجعة[٢] استنماما لزهرتها، وشفقة على نضرتها، وادخارًا لثمرتها؛ حتى مرت بنا في سفرتنا هذه سنة كانت قطعة من سني يوسف – عليه السلام – : اشتد علينا كلبها، وأخلفتنا غيومها، وكذبتنا بروقها، وفقدنا صالح الإخوان فيها. فانتجعتك، وأنا بانتجاعي إياك شديد الشفقة عليك، مع علمي بأنك نعم موضع الرائد. واعلم أن الكريم إذا استحى من إعطاء القليل ولم يحضره الكثير، لم يعرف جوده ولم تظهر نعمته وأنا أقول في ذلك[٣]:

ظل اليسار على العباس ممدود ... وقلبه أبدًا بالبخل معقود

إن الكريم ليُخفي عنك عسرته ... حتى تراه غنيًا وهو مجهود

وللبخيل على أمواله علل ... زرق العيون عليها أوجه سود

إذا تكرهت أن تعطي القليل ولم ... تدر على سعة لم يظهر الجود

بث النوال، ولا تمنعك قلته، ... فكل ما سد فقرًا فهو محمود

لأبي هلال العسكري، قال: فشاطره ماله حتى بعث إليه بقيمة نصف خاتمه وفرد نعله.

وما مدحت العرب ولا تمدحت بمثل الإعطاء على العسر والمواساة على القلة. وذلك أن أكثرهم كان في شدة وإضاقة، فلو جعلوا ذلك حجة وقبضوا أيديهم عن صلة

---

(١) رواه البخاري (١٤١٧)، (٦٠٢٣)، ومسلم (١٤٢/٧)، (١٠١٦).

(٢) يعني: طلب الكلأ في مساقط الغيث.

(٣) روى هذه الأبيات الخطيب في تاريخ بغداد (٤٩١/١٢)، وأوردها أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني (٤٦/٣)، وعزاها لبشار بن برد، وفيها ابن عبد ربه في العقد الفريد (١١٧/١) لحماد بن عجرد، وقال الأستاذ محمود شاكر رحمه الله: ولعل الصواب أنها للعتابي كلثوم بن عمرو.

الغريب وبر البعيد، لارتفعت العوارف[١] مما بينهم، وغاض الجود فيهم.

وأنشد عبد الملك بن مروان قول عروة بن الورد:

أتهزأ مني أن سمنت، وأن ترى بجسمي جهد الحق، والحق جاهد

وأني امرؤ عافي إنائي شركة وأنت امرؤ عافي إنائك واحد[٢]

أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسوا قراح الماء والماء بارد[٣]

فقال: ما كنت أشتهي أن يلدني أحد من العرب إلا هذا.

وقد أحسن عتيبة بن بجير الحارثي، من بني الحارث بن كعب، في قوله:

ومستنبح بات الصدى يستتيهه إلى كل صوت فهو في الرحل جانح[٤]

فقلتُ لأهلي: ما بغام مطية؟ وسار أضافته الكلاب النوابح[٥]

فقالوا: غريب طارق طوحت به متون الفيافي والخطوب الطوائح

فقمت، ولم أكشم مكاني، ولم تقم مع النفس علات النفوس الشحائح

وناديت شبلا[٦] فاستجاب، وربما ضمنا قرى عشر لمن لا نصافح

فقام أبو ضيف كريم، كأنه وقد جد من فرط الفكاهة مازح

إلى جذم مال قد نهكنا سوامه وأعراضنا فيه بواق صحائح

---

(١) يعني: صنائع الجود.

(٢) العافي: القاصد، الطالب.

(٣) انظر: الكامل في الأدب (٣٦/١) والعقد الفريد (١١٨/١)، وأمالي القالي (٢٠٤/٢).

(٤) قال الشيخ الأستاذ الكبير محمود شاكر رحمه الله: من عادة العرب أن ينبح طارق الليل نباح الكلاب لعل كلبنا يسمعه فيجيبه، وفاعل ذلك هو المستنبح الذي يطلب نباحة كالكلب أن يسمع نباحًا، ويستتيهه، استفعل من (تاه) ويريد بذلك أن صدى صوته قد جعله حيران لا يدري أيسمع نباحًا أم يسمع صدى فلذلك بقي جانحًا في رحله لا يغادره خشية الضلال من الهلكة.

(٥) البغام: صوت الناقة الخفي حين تحف.

(٦) يعني: ولده شبلاً.

جعلناه دون الذم، حتى كأنه إذا عُد مال المكثرين – منائحُ

لنا حمد أرباب المئين، وما يُرى إلى بيتنا مال مع الليل رائح

وأخذ هذا المعنى إسحاق بن إبراهيم الموصلي فقال:

عطائي، عطاء المكثرين تكرمًا ومالي كما قد تعلمين قليل

وأخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن الحسن بن يحيى قال سمعت إسحاق يقول: أنشدت الرشيد شعرًا فلما بلغتُ إلى قولي:

وكيف أخاف الفقر، أو أحرم الغنى ورأي أمير المؤمنين جميل؟

قال: لا، كيف: لله در أبيات تجيء بها ما أحكم أصولها وأحسن فصولها، وأقل فضولها. قلت: هذا الكلام، والله أحسنُ من شعري.

والأبياتُ هي هذه:

وآمرة بالبخل قلتُ لها: اقصري، فذلك أمر ما إليه سبيلُ

أرى الناس خُلان الجواد، ولا أرى بخيلاً لهُ في العالمين خليلُ

وإني رأيت البخل يزري بأهله فأكرمت نفسي أن يقال: بخيلُ

ومن خير حالات الفتى لو علمته إذا نال شيئًا أن يكون ينيلُ

عطائي عطاء المكثرين تكرمًا ومالي كما قد تعلمين قليلُ

وكيف أخافُ الفقر، أو أحرمُ الغنى ورأيُ أمير المؤمنين جميلُ؟

ومن عجيب ما يروى في هذا الباب أن الفرزدق دخل على يزيد بن المهلب وهو يُعذب في سجن الحجاج فأنشده:

أبا خالد! ضاعت خراسان بعدكم؛ وقال ذوو الحاجات أين يزيدُ؟

فلا قطرت بالمرو بعدك قطرة، ولا اخضر بالمروين بعدك عود[1]

فما لعزيز بعد عزك بهجة وما لجواد بعد جودك جود

(١) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (١/٣٥١).

وكان يزيد قد أعد مالا يُصانع به الحجاج ليقصر من تعذيبه، فقال لغلمانه: ادفعوا إليه المال ودعوا لحمي للحجاج يقطعه كيف يريد[(١)].

وأعجب من هذا أن عمر بن عبيد الله بن معمر مر بزنجي يأكل عند حائط وبين يديه كلب، إذا أكل لقمة طرح له لقمة.

فقال له: أهذا الكلب كلبك؟ قال: لا، قال: فلم تطعمه مثل ما تأكل؟ قال: إني أستحي من ذي عينين ينظر إليّ، أن أستبد بمأكول دونه. قال: أحرُ أنت أم عبد؟ قال: عبد لبعض بني عاصم، فأتى عُمرُ ناديهم فاشتراه واشترى الحائط، ثم جاءه فقال: أشعرت أن الله قد أعتقك؟ قال: الحمد لله وحده، ولمن أعتقني بعده. قال: وهذا الحائط لك، قال: أشهدك أنه وقف على فقراء المدينة. قال: ويحك! تفعل هذا مع حاجتك؟ قال: إني أستحي من الله أن يجود لي بشيء فأبخل به عليه.

والعرب تقول: «أتاك ريان بلبنه»[(٢)] معناه يعطي لغير كرم، ولكن لكثرة ما عنده.

ونحوه، وإن لم يكن منه قول إبراهيم بن العباس (شعرًا):

لا تمدحن ابن سهل إن وجدت له ... فعلا جميلا، ولا تعذل إذا أزما[(٣)]

فليس يمنع إبقاء على نشب ... وليس يعطي الذي يُعطيه معتزما

لكنها خطرات من وساوسه ... يعطي ويمنع: لا بُخلا، ولا كرما

وقال أشجع السلمي يمدح يحيي بن جعفر البرمكي بإعطاء الكثير على الإقلال:

يروم الملوك مدى جعفر ... ولا يصنعون كما يصنع

وكيف ينالون غاياته ... وهم يجمعون ولا يجمع

وليس بأوسعهم في الغنى ... ولكن معروفه أوسع

وليس للمعطي أن يمنع القليل استحياء من قلته، لأن المنع أقل منه ولا للمعطي

---

(١) انظره في: المستطرف في كل فن مستظرف (١/٣٥٤).

(٢) انظر: مجمع الأمثال (١/٤٢)، وجمهرة الأمثال (١/٩، ٧٢)، والمستقصي في أمثال العرب (١/٣٧).

(٣) يعني: أمسك وبخل.

أن يتسخطه، فرُب قليل سد خلة كبيرة، وجبر فاقة عظيمة، وربما يبلغ به إلى كثير. ولولا ذلك لم يكن للوصول إليه سبيل.

وكتب ابنُ المعتز «لا تستقل شيئًا من زيادة الله إياك، فتُنفر نفيسها عنك. وقليل تترقى منه إلى كثير، خير من كثير تنحط به إلى قليل».

وقال ابن الرومي، أنشدناه أبو أحمد، عن ابن المسيب، عنه:

رأيت المطل ميدانًا طويلاً ... يروضُ طباعهُ فيه البخيل
فما هذا المطالُ؟ فدتك نفسي ... وباعُك بالندى باع طويل
أظنك حين تقدر لي نوالاً ... يقل لديك لي منه الجزيل
ويعوزك الذي ترضى لمثلي، ... وإن لم يعوز الرأي الجميل
وفيما بين مطلك واختلالي ... يموت بدائه الرجل الهزيل
فلا تقدر بقدرك لي نوالاً ... ولا قدري فتحقر ما تُنيل
وأطلق ما تَهم به عساه ... كفافي أيها الرجلُ النبيل
وإلا فالسلام عليك مني ... نبت دار فأسرع بي رحيل
إذا ضاقت على أمل بلاد ... فما سُدت على عزم سبيل(١)

وتقول العرب: «**إن الرثيئة تفثأ الغضب**» يجعلونه مثلاً لحسن موقع المعروف وإن كان قليلاً، وأصله أن رجلاً غضب على قوم فأتاهم ليوقع بهم، فسقوه رثيئة فسكن غضبه فكف عنهم. والرثيئة لبن حامض يصب عليه حليب.

وأخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن زكريا، عن الأصمعي قال: ذكر أعرابي رجلاً فقال: ما رأيت رجلاً أعشق للمعروف منه، ولا رأيت الرزق أبغض أحدًا بُغضه.

ومما يجري مع هذا ما أخبرنا به أبو أحمد عن الجلودي، عن أحمد بن الفضل، عن عبد الوهاب، عن إبراهيم بن عبد الأعلى، عن الحسين بن فهم، عن عمه قال: اشتهى صديق لي فروجًا أطبخه له؛ فأكلت الجارية اللحم كله إلا لحم الصدر، ونحن لا نعلم، فكتبت إليه:

---

(١) انظر: جمهرة الأمثال (١/٤٧٨).

طبخـــنا لـــك فـــروجًا فطـــاف الأهـــل بالقـــدر
ولم نقـــدر علـــى المـــنع لقـــبح المـــنع في الذكـــر
فآثـــرناك بالصـــدر لأن الصـــدر للصـــدر

وهذا مثل ما تقدم من قولنا: «إن إعطاء القليل خير من المنع لأن المنع أقل منه».

ومثل ذلك: أن رجلاً اتخذ دعوة فجاءته الهدايا من كل وجه. وكان من أصدقائه رجل مملق فوجه إليه بجراب أشنان وجراب ملح وكتب إليه: «لو تمت الإرادة بحسب النية، وملكتني القدرة ببسط الجدة، لبدرت السابقين إلى بِرِّك، ولكنت إمام المتقدمين في إكرامك. لكن البضاعة قعدت عن الهمة، وقصرت عن مساواة أهل الثروة.وكرهت أن تطوي صحيفة ولا يكون لي فيها ذكر؛ فوجهت بالمبتدأ به لطيبه ويُمنه. وبالمختوم به لطهارته ونظافته، مصطبرًا على ألم التقصير فأما ما ينوى فالمعبر عني به كتاب الله عز وجل: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٩١].

وشبيه بهذا الخبر ما ذكره جعفر بن قدامة، عن منّة[١] البرمكية قالت: كانت لأم علي بنت الرايس جارية مغنية يقال لها مكر، وكانت من أحسن الناس وجهًا وغناء، وكان لها رُفقاء من الكتاب ووجوه التجار، وكان أبو يحيى الكنخي يعاشرها فافتصدت يومًا فأهدى لها رفقاؤها صنوف الهدايا، وبعث إليها أبو يحيى بثلاث سلال مختومة، فإذا سلة فيها ماش ومعه رقعة فيها: «الماش خير من لاش»[٢]، وفي الأخرى عصافير بأجنحتها، فلما فُتحت طارت؛ ومعها رقعة فيها «يا سيدتي أعتقتُ عنك هؤلاء المساكين، ولو كان بدلها عبيدًا لأعتقتهم» وفتحت الأخرى فإذا هي فارغة، وفيها رقعة مكتوب فيها: «يا مولاتي لو كان عندي شيء لبعثت إليك بشيء، ولكن ليس عندي شيء فلم أبعث إليك بشيء، فضحكوا وبعثوا إليه بنصيب وافر من كل ما أُهدي إليها» فكتبت إليه أم علي: «أعطى الله عهدًا إن لم تكن هديتُك أملح من كل هدية وردت علينا».

وكان أعرابي يأتي ابن عائشة في كل سنة فيصله بعشرة دنانير، فجاء ذات مرة فأخبر

---

(١) هي جارية مغنية مقتدرة كانت للبرامكة. وانظر الأغاني (٣٣٢/٤).

(٢) الماش: قماش البيت.

بأنه مُضيق عليه ومدين فمثل بين يديه وقال: قد أخبروني بُعذرك وبما عليك من الدين، ووالله ما قصدتك إلا وأنا على غاية الإضافة،وأنت تُعطى وأنا لا أُعطى، ثم قال:

وقـــد خُـــبرت أن علـــيك ديـــنًا　　فـــزد في رقـــم ديـــنك واقـــض ديني

فضحك ابن عائشة وقال له خذ هذه السجة، وهي من الخشب كانت في داره، فأخذها الأعرابي وباعها بثمانية دنانير، فالصلة بالقليل ربما تقع موقعها بالجزيل، وللرد مصيبة حلت بالسائل والمسئول.

قال رجل: كنت أمشي مع سفيان بن عيينة إذ أتاه سائل فسأله، فلم يكن معه ما يعطيه، فبكى، فقلت: يا أبا محمد: ما الذي أبكاك؟ قال: أي مصيبة أعظم من أن يأمل فيك رجل خيرًا فلا يصيبه! ونحوه قول الشاعر:

ألـــيس كـــبيرًا أن تُلـــم ملمـــة،　　ولـــيس علينـــا في الحقـــوق مُعـــول

وقال آخر:

يـــرى المـــرء أحـــيانًا، إذا قـــل مالـــه　　مـــن الخـــير أبـــوابًا فـــلا يســـتطيعها

ومـــا إن بـــه بُخـــل، ولكـــن مالـــهُ　　يقصـــر عـــنها، والغـــني يُضـــيعها

وما ساد أحد قط، ولا سار ذكره بشيء كإيثاره على نفسه. وقد مدح الله تعالى الأنصار: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر:٩].

وما ذُكر حاتم وكعب بن مامة الإيادي إلا بإيثارهما على أنفسهما. وأخبرنا أبو أحمد عن أبي بكر، عن أبي حاتم، عن أبي عبيدة قال: أجواد العرب ثلاثة: حاتم بن عبد الله الطائي، وكعب بن مامة الإيادي، وكلاهما آثر على نفسه وضُرب بهما المثل، والجواد هرم بن سنان المري الذي يقول فيه زهير(١):

إن البخيل ملوم حيث كان، ولـــ　　ـــكـــن الجـــواد علـــى علاتـــه هـــرم

هـــو الجـــواد الـــذي يعطـــيك نائلـــه　　عفـــوًا، ويظلـــم أحـــيانًا فـــيظلم

وكان مما آثر به حاتم على نفسه، أنه خرج في الشهر الحرام يطلب حاجة، فلما

---

(١) انظر: خزانة الأدب (١/٣٢٩)، ومجمع الأمثال (١/٣٢٩)، (١/١٨٨)، وجمهر الأمثال (١/٣٣٨)،و المستقصي في أمثال العرب (١/٥٦).

كان بأرض عنزة ناداه أسير لهم: يا أبا سفانة! أكلني الإسار والقملُ ... قال: ويلك، والله ما أنا ببلاد قومي، وقد نوهت باسمي، ومالك مترك، فساوم العنزيين فاشتراه وخلاه، وأقام في قده حتى أتى بفدائه.

فقال الفرزدق حين صافن عاصمًا العنبري:

فلما تصافنا الإداوة أجهشت إلى غضون العنبري الجراضم[١]

على ساعة لو أن في القوم حاتمًا على جوده ضنت به نفس حاتم

وصحب كعب رجلاً من النمر بن قاسط في شهر ناجر[٢] فتصافنا ماءهما، فجعل النمري يشرب نصيبه. فإذا أصاب كعبًا نصيبه قال: اسق أخاك النمري، فيؤثره على نفسه ويسقيه، حتى أضر به العطش، وأسرع السير حتى رفع له أعلام الماء وقد غلبه العطش فقيل له: رد كعب فلم يقدر على الورود فمات. فقال رجل من إياد يبكيه[٣]:

ما كان من سوقة أسقى على ظمأ خمرًا بماء إذا ناجودها بردا

من ابن مامة كعب ثم عي به زو المنية إلا حرة وقدى

ومما جاء في مدح القليل ما أنشدناه أبو أحمد، عن أبي بكر:

وإن قليلاً يستر الوجه أن يُرى إلى الناس مبذولا، لغيرُ قليل

وقال زهير[٤]:

على مكثريهم حقٌ من يعتريهم، وعند المقلين السماحة والبذل

فلم يخل فقيرًا منهم ولا غنيًا من بذل، وقريب من هذا المعنى ما أنشدناه أبو القاسم، عن العقدي عن أبي جعفر، عن ابن الأعرابي:

---

(١) الجراضم: الأكول الضخم، والأبيات من قصيدة في هجاء العنبري المضل، وهي في ديوانه (٤٠٥).

(٢) أي أشد فصل الصيف حرًا.

(٣) انظر: مجمع الأمثال (١/١٨٤)، وجمهرة الأمثال (١/٩٥)، والمستقصى في أمثال العرب (١/٥٤).

(٤) انظر: جمهرة خطب العرب (٣/١٧٦)، ونفح الطيب (٣/٣٣٦).

ولا عـزنا يغـدو علـى ظلـم غيرنا ولـيس علينـا للظلامـة مـذهب
نـريح تـلاد الحلـم وسـط بيوتـنا إذا حلـم أقـوام مـن الـناس يعزب
ولا ألطـم ابـن العـم إن كان إخوتي شـهودًا، وإخـوان ابـن عمـي غيبُ
علـى سـفر، أو صـادفتهم منـية فأوحـد مـنهم ظهـره حين يغضب[١]
علـى كـل حـال قـد قلتني عشيرتي علـى الفقـر مـني، والغنى حين أترب
غنـيتُ فلـم أبخـل علـى مُقتريهم بشـيء،ولم أكـدُدهمُ حـين أنكـبُ
يعـيشُ الفـتى بالفقـر يومًا، وبالغنى، وكـل كـأن لم يلقـهُ حـين يـذهبُ

وهذا مأخوذ من قول أبي كبير:

فـإذا وذلـك لـيس إلا حيـنه وإذا مضـى شـيء كـأن لم يُفعـل

وأخذه آخر[٢] فقال:

كـأن الفـتى لم يعـر يومًا إذا اكتسى ولم يـك صُـعْلُوكا إذا مـا تمـولا
ولم يـك في بُـؤس إذا بـات لـيلة يُناغـي غـزالا فاتـر الطـرف أكحلا

وإذا رضي منك بالقليل فلم يوجد عندك، كان الذم بك أليق، واللؤم بك أعلق، وطريق عُذرك أضيق. وقال آخر:

ولـيس يـتم الحلـم للمـرء راضيًا إذا كـان عـند السـخط لا يتحلم
كمـا لا يـتم الجـودُ للمرء مُوسرًا إذا كـان عـند العُسـر لا يتكـرم

وسأل ابن الرومي رجلاً قفيزين من حنطة فمنعه، فقال:

سـألت قفيـزين مـن حـنطة فجـدت بكـر مـن المـنع واف[٣]

---

(١) أوحد منهم ظهره: أي بقي منفردًا لا ظهر له، يقال في الدعاء: «أوحد الله جانبه» أي أبقاه وحيدًا لأعدائه.

(٢) هو جابر ثعلب الطائي كما في الحماسة.

(٣) القفيز: مكيال تواضح الناس عليه قديمًا، والكُر: ستون قفيزًا، وقال ابن سيدة: يكون بالمكيال =

كـــأني ســـألتك حـــب القلـــو ب: ذاك الذي من وراء الشغاف[١]

وقال أوس بن حجر:

مـــنعت قلـــيلا نفعـــه، وحـــرمتني يســـيرًا فهـــبها بـــيعة لا تقالهـــا

وأنشدنا أبو أحمد وغيره لبعضهم، يمدح رجلاً بقلة المال وكثرة النيل:

لـــه نـــار تُشـــب بكـــل أرض إذا الـــنيران جُللـــت القـــناعا[٢]

ومـــا إن كـــان أكثـــرهم ســـوامًا، ولكـــن كـــان أرحـــبهم ذِراعـــا

وقال أشجع:

ولـــيس بأوســـعهم في الغـــنى ولكـــن معـــروفه أوســـع

وقال آخر[٣]:

ومـــا الجـــود عن فقر الرجال ولا الغنى، ولكـــنه خـــيمُ الـــرجال وخيرهـــا

فنفســـك أكـــرم عـــن أمـــور كـــثيرة فمـــا لـــك نفـــس بعـــدها تســـتعيرها

وقـــد تخـــدع الدنـــيا، فيُمســـي غنيها فقـــيرًا، ويغـــنى بعـــد بـــؤس فقيرهـــا

وكـــم طامـــع في حاجـــة لا يـــنالها وكـــم آيـــس مـــنها أتـــاهُ بشـــيرُها

اعلم أدام الله عزك أن اليسير تعطيه عفوًا، وتبذله صفوًا من غير مطل يُغيض ماءه، ويكدرُ هواءه، يقوم مقام الكثير وينُوب مناب الجزيل؛ لأن المنع خير من المطل، ويسير النيل خير من المنع، على ما قدمناه قبل، وقد قال ابن الرومي:

مـــن الحـــيف تطفـــيف النوال ومطلهُ فعجـــل خسيسًـــا، أو فأجـــل موفـــرا

فكـــن نخلـــة تلـــوي وتُســـني عطاءها وإلا فكـــن عفصـــا أقـــل وأيســـرا

وأخبرنا أبو أحمد عن الصولي، عن القاسم بن إسماعيل عن العطوي، عن يحيي

=

المصري أربعين إردبًا.

(١) الشغاف: غشاء القلب.

(٢) أي ستر ضوءها مخافة أن يراها طارق فيحضرها.

(٣) القائل: هو الحسين بن مطير الأسدي.

ابن أكثم قال: دخلت على المأمون وبين يديه طعام في طبق فدعا بي إليه، وكان لحمًا باردًا قليلاً، فخاف أن أستقله فقال من الشعر له:

اعــرض طعامــك وأبذلــه لمن دخلا ... واحلــف على من أبي واشكر لمن أكلا

ولا تكــن ســابري العــرض مُحتشما ... مــن القلــيل، فلســت الدهر مُحتفلا

وفي الحديث «**خير الصدقة جهد المقل إلى فقير في السر**».

وقد علمت، أدام الله عزك، أن الوصف بكرم النفس، وسعة الصدر، وسماحة الكف؛ من أنفس ما يُراد، وأجل ما يُرتاد. ومن رزقه بإنالة قليل لا يجحف به. فقد أوتي الحظ الجسيم، وسيق إليه المتجر الربيح. والشكر القليل ثمنُ النوال الجزيل، فإذا رُزقت كثير الشكر على قليل النيل، فاعلم بأنك مسعود.

وأنشد أبو تمام في قريب من هذا المعنى[1]:

ومُســتنبح قــال الصــدى مثل قوله، ... حضــأتُ لــه نــارًا لهــا حطب جزلُ

(حضأت النار فحضأت أي ألهبتها فالتهبت، وقال ابن دريد حضوتُ بغير همز بمعنى حضأت، وقال غيره ويقال حضي الرجل يحضي إذا حرص وشره).

وقمــتُ إلــيه مُســرعًا فغنمــته، ... مخافــة قــوم أن يفــوزوا بــه قــبل

فأوســعني حمــدًا، وأوســعته قــرى ... وأرخــص بحمــد كــان كاسبه الأكلُ

وأخبرنا أبو أحمد، عن ابن دريد، عن أبي معاذ خلف بن أحمد المؤدب، عن المازني، عن أبي عبيدة قال: كان بالبصرة رجل من موالي بني سعد يقال له: نبيت، وكان صاحب صلاة بالليل، وكان الأعراب ينزلون عليه: فنزل عليه قوم ولم يُعشهم وقام يُصلي إلى الصباح، فقال رجل منهم:

لخبــز نبــيت وعلــيه لحــم ... أحــب إليّ مــن صــوت القَــرآن

تبــيتُ تُدهــده القــرآن حــولي ... كأنــك عــند رأســي عقــربان

فذكر أن للطعام مكانًا على قلته، ونزارة قيمته، وليس السخاء بالكثير بأحمد من السخاء بالقليل إذا وافق الحاجة وقد قيل: «**خير السخاء ما وافق الحاجة**»[2]، ولم

(١) انظر جمهرة الأمثال (٢/١٩٢).

(٢) انظر: مجمع الأمثال (٢/١٨٣)، وجمهرة الأمثال (١/٣٦٥، ٤٩٥)، وجمهرة خطب العرب (١/١٣٤).

يشترط فيه الكثرة والقلة، وقيل:

وأغبط من ليلى بما لا أناله، وقلة ما قرت به العينُ صالحَ

وأخبرنا أبو القاسم بن شيران، عن عبد الرحمن بن جعفر، عن الغلابي، عن عيسى بن يزيد، عن موسى بن عقبة، عن مقسم مولى ابن عباس. (ح) وعن الغلابي عن مُطرف عن ابن دارة. (ح) وعن الغلابي عن عبد الله بن الضحاك، عن هشام بن معاوية والهيثم بن عدي: عن الحسن قالوا: وفد عبيد الله بن العباس على معاوية؛ فلما كان ببعض الطريق أصابتهُ السماء فأم أبياتًا من الشعر؛ وإذا أعرابي قد قام إليه فلما رأى هيئته وبهاءه، وكان من أحسن الناس شارة وأحسنهم هيئة، قال الأعرابي لامرأته: إن كان هذا من قريش فهو من بني هاشم، وإن كان من اليمن فهو من بني آكل المرار[1]. فأنزله، وذلك في الليل، فقام الأعرابي إلى عُنيزة له يذبحها فجاذبته امرأته وقالت: أكل الدهر مالك وشربه، ولم يبق لك ولبناتك إلا هذه العنيزة نضع درة كمخة عرقوب، ثم تريد أن تفجعهن بها؟ قال: والله لأذبحنها. فقال: والله، إذ لا يتركك بناتُك، قال: والله؛ للموت خير من اللؤم ... [ثم] قال: وعبيد الله يسمع:

قرينتي لا توقظي بُنيه إن توقظيها تنتحب عليه[2]

وتنزع الشفرة من يديه أبغض بهذا وبها إليه

ثم ذبح الشاة وأضرم النار، وجعل يقطع من أطايبها ويلقيه على النار، ثم قربه إلى عبيد الله بن العباس ومن معه، فجعل عبيد الله يأكل ويحدثه في خلال ذلك بما يُلهيه ويضحكُه، حتى إذا أصبح وانجلت السحابة وهمَّ بالرحيل قال لمقسم: كم معك من نفقتك؟ قال: خمسمائة دينار، قال: ألقها إلى الشيخ، قال: ما تُريد إلا أن تسأل الناس في طريقك: إن هذا يرضيه عشر ما سيمت. وتأتي معاوية ولا تدري علام توافقه؟ قال: ويحك، إنا نزلنا على هذا وما يملك إلا هذه الشاة، فخرج لنا من دُنياه كلها، ونحن نُعطيه بعض ما نملكه فهو أجودُ منا، قال: فألقاها إليه وارتحل، فأتى معاوية فقضى حوائجه، فلما انصرف قال لمقسم: انظر ما حال صاحبنا. فعدل إليه

---

(١) هو حُجر جد امرئ القيس، وبنو أكل المرار سادة اليمن وملوكها.

(٢) أي تشتد في مقاومته ومناقرته.

فإذا إبل وشاء وحال حسنة؛ فلما بصُر الأعرابي بعبيد الله أكب على أطرافه يقبلها ثم قال: بأبي أنت وأمي، قد مدحتك ولا أدري والله من أي خلق الله أنت. وأنشده:

توسمته لما رأيتُ مهابة عليه، وقلتُ المرء من آل هاشم

وإلا؛ فمن آل المرار فإنهم ملوك، وأبناء الملوك الأكارم

(قال الشيخ أبو هلال: ثم ذكر أبياتًا رديئة اللفظ والوصف أظنها من عمل ابن دأب، فإنه كان عمولا لأمثالها فيما يرويه من الأحاديث) فقال عبيد الله: أصبت؛ أنا من ولد هاشم؛ وقد ولدني آكل المرار(١)، فبلغ معاوية ذلك فقال: لله در عبيد الله من أي بيضة خرج، وفي أي عُش درج، هذه والله من فعال عبيد الله مُعلم الجود، وهو والله كما قال الحطيئة(٢):

أولئك قوم، إن بنوا أحسنُوا البناء وإن عاهدوا أوفوا، وإن عقدوا شدوا

وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا

وقال بعض الحكماء: «ذلل أخلاقك للمحاسن، وقدها للمحامد وعلمها المكارم، وعودها الجميل والإيثار على النفس فيما تحمد غبه ولا تُداق الناس وزنًا بوزن وتكرم بالغنى عن الاستقصاء وعظم قدرك بالتغافل عن دنيء الأمور، وأمسك رمق الضعيف بالمعونة، وصل من رغب إليك بجاهك، وإن عجزت عما رجاه عندك، ولا تكن بحاثًا عمن غاب عنك فيكثر عناؤك، وتحفظ من الكذب فإنه أسقطُ الأخلاق للأقدار، وهو نوع من الفحش، وضرب من الدناءة، وأصله من استعداد المتمني، وهو أضغاث فكر الحمقى، فإذا استحكم في الضمير بتسويل النفس الضعيفة جاشت، فغلى على اللسان، كما يفورُ الماء في الإناء إذا احتدمت تحته النار. واعلم أنه أغلب شيء على صاحبه، وأشده تمكنًا منه، وأحرى أن لا يُنزع منهُ بحيلة، وذلك لضروراته وطول صحبة العادة له». وقيل لبعض الحكماء: ما الشح؟ قال: أن ترى إعطاء القليل سرفا، والإنفاق في الحق تلفا.

ومما يرغب في الإحسان قول بعض الحكماء لأصحابه: اعلموا أن كل يوم يمر بكم

---

(١) لأن أمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية.

(٢) انظر: نفح الطيب (٤/٥٤٥)، والأغاني (٢/١٩١).

يحمل ما يُثبت فيه من حسن وقبيح، ثم يمضي فلا يعود؛ فإن قدرتم أن تخُطوا في كل يوم مكرمة. وتثبتوا فيه حسنة تبتهجوا بذكره ولو بعد حين، فلا تؤخروا ذلك فتغبنوا حظكم من يومكم، فإن الأيام صحائف، فخلدوا فيها الجميل؛ وقد رأيتم حفظها لما استودعت من المحامد وأفعال الكرام في قديم الدهر وأول الزمان، ثم لم يدرس[1] ذلك مع ذهاب القرون، ولا ينسى على حال؛ وما حوت من العار لا يمحوه الآخر عن الأول.

وقال بعض الحكماء: بإجالة الفكر يُستدرك الرأي المصيب، وبحسن التأني تسهُل المطالب وبلين كنف المعاشرة تدوم المودة، وبخفض الجانب تأنس النفوس؛ وبسعة خلق المرء يطيب عيشه، وبكثرة الصمت تكون الهيبة، وبعدل المنطق تجب الجلالة؛ وبالنصفة يكثر الواصلون، وبالإفضال تعظم الأقدار، وبالتواضع تتم النعمة، وبصالح الأخلاق تزكو الأعمال، وباحتمال المؤن يجب السؤدد، وبالسيرة العادلة يقهر المناوئ، وبالحلم عن السفيه تكثر أنصارُك عليه، وبالرفق والتودد تستفيد محبة القلوب وبحسن اللقاء يألفك الثناء الجميل، وبإيثارك على نفسك تستحق اسم الكرم، وبالصدق والوفاء تكون للناس رضي، وبنفي العُجب تأمن مقت أولي الألباب، وبترك ما لا يعنيك من الأمر يتم لك الفضل، ومن رضي للناس بالمسامحة دام استمتاعه بهم.

ومما يجري مع ذلك، وإن لم يكن منه، قول بعض الحكماء: ما أخلق الأعراض، ولا أذل الأقدار مثل نيل ممتن به، واستطالة منعم بفضله. ولفقدُ السعة مع تزهد النفس أغنى من امتهان عرضك لمن يستكثر قليل نيله لك، ويستقل ما بذلت له من شكرك.

ونحوه: كافئ المعروف وإن جل، واشكره وإن قل وإذا أصابتك شدة فاذكر أن ما بعدها أشد منها وأفظع، فإن ذلك يهون عليك شدة بلائها، ويتحمل عنك ثقل أعبائها.

قال الشيخ أبو هلال: وقد علمنا أن المرء وإن ملك الدنيا بحذافيرها لم ينتفع منها إلا بقدر الحاجة، ولا وجه لتسخطه القليل وهو حظه، وتطلعه إلى الكثير وهو فضل.

فمن جيد ما روي في فضل الإعطاء على العُسر: أن رجلا دخل على المنصور فقربه ثم أمر بإعطائه عشرة آلاف درهم، فُحملت معه. وخطا خطوات مُنصرفًا فرده وأمر له بمثلها، فقبضها، وخطا خُطوات مُوليًا فرده وأمر له بمثل هذا أيضًا؛ فلما انصرف قال: لقد أراني وأنا هارب من بني أمية، وقد نادى مناديهم ببراءة الذمة ممن وُجد منا في

---

(١) يعني: لم يبل، ولم يذهب.

بلادهم، فأردت الخروج من الكوفة في الهاجرة فدفعت إلى هذا الرجل وهو يحذو النعال فقال لي: لعلك من هذه الفرقة المهجورة؟ قلت: نعم، فدفع إليَّ شق درهم كان معه، ولما وليت ردني وأعطاني أرغفة كان أعدها لعشائه، ولما انصرفت ردني ودفع إليَّ زوجي نعال كانتا له وكنتُ حافيا، فوقع مني موقعًا محمودًا فانصرفتُ ولقيته اليوم ففعلت ما فعلتُ، على علم مني أنه كان في قليل ما أعطانيه أجودُ مني في كثير ما أعطيته.

ومما يجري مع ذلك، وإن لم يكن منه، قول بعض الحكماء: المُقل السخي غني بجميل الذكر، والبخيل المُكثر فقير بسوء الذكر، وخمولُ الذكر أحمد من الذكر الذميم.

ومما يجري مع ذلك ما أخبرنا به أبو أحمد، عن أبي بكر، عن أبي حاتم قال: حضرتُ بعض وُلاة البصرة، ولم يُسمه، وكان جبارًا فسمعت رجلاً يقول في مجلسه: الأتباع يؤنسهم البشر، ويوحشهم الازورار، ويلُمهم لين الجانب، ويُفرقهم عنف المعاشرة. وازدحام الآمال لديك، نعمة من الله عليك، فقابل النعمة بحسن المحاورة تستدم واردها، وتستدع نافرها قال: فمازلت أعرف موقع هذا الكلام من ذلك الوالي حتى افترقنا.

وإذا كان البشرُ، أصلحك الله، يصلح لتألف القلوب، فالنيل وإن كان قليلاً أصلح لها، فليس ينبغي أن يستحي أحد من بذله، ولا يستصغر أحد أخذه، فإن قليل النفع كثير إذا قيس بفقده. وإذا عرفت المنفعة في تفاريق العصا مع قلتها ونزارة قيمتها، وعلمت أن نزر المنافع جزل في بعض المواضع. وقد علمت أن حاتمًا وكعبًا و هرمًا لم يجعلوا أمثالاً في الجود لعظم عطياتهم في القدر، لأن الواحد منهم إنما كان يقري ضيفًا، أو يهب بعيرًا، أو عددًا من الشاء قليلاً ...، ولكن ذهب صيتهم في السماح، وبعد ذكرهم في الجود، لأنهم كانوا يعطون وهم محتاجون، ويُنيلون وهم مختلون. وقد عرفت أن كعبا إنما رزق هذا الاسم الكبير في الجود بما آثر صاحبه، ورزقه حاتم بإنهابه ماله؛ ولم يكن بالعكر الدثر ولكن قصدًا أو قليلاً نزرًا، وأن هرما إنما أعطى زهيرًا رواحل وثيابا تقل قيمتها ولا يعظم مقدارها، وكان عطاء الرشيد والبرامكة والمأمون والأمين في اليوم الواحد أكثر من جميع ما أعطاه أولئك في جميع أيامهم، ولم يُضرب بواحد من هؤلاء المثل كما ضُرب بأولئك. فهذا يدل على أن الناس إنما استحسنوا منهم بذلهم مع ضيق أحوالهم. وقلة ذات أيديهم؛ فجعلوهم أمثالاً مضروبة لكل من استغربوا فعله، واستبدعوا صنيعه.

وفي أخبار حاتم: أن جارية جاءته في ليلة شاتية فقالت: جئتك يا أبا سفانة من عند

صبية لهم ضعفاء[1] من الجوع، فقال: والله لأشبعنهم، فتعجبت امرأته من قوله لعلمها أنه لا شيء عنده. فقام إلى فرسه فذبحها وأوقد، فجعل يكبب لها اللحم حتى اكتفت واكتفى أولادها. ثم قسم بقيته ولم يدخر لعماله شيئًا.

فبمثل هذا كان يبعد ذكر جوده، ومبلغ ما يجود به قصد. وأعطى غيره الكثير وأعطى من الذكر القليل.

ولقد حدث محمد بن صالح بن داود قال: ركبنا مع عمي، يعقوب بن داود، إلى يحيى بن خالد بن برمك، قال: فكلمه في حوائج للناس تبلغ ثلاثة آلاف درهم فقضاها كلها، ثم قال له: قد رأيت قلة وفاء الناس لك على كثرة معروفك عندهم؛ فلو سألت لنفسك فأبى أن يسأل إلا لهم، وسأله أن يُسكنه مكة ففعل، وأجرى عليه في كل سنة خمسمائة ألف درهم سوى ما حمله إليه من الطعام من مصر.

وأخبرنا أبو أحمد[2] عن الصولي، عن [محمد بن] القاسم بن خلاد قال: حدثني محمد بن عمرو قال: خرج كوثر، خادم الأمين محمد، ليرى الحرب، فأصابته رجمة في وجهه فجلس يبكي، فوجه محمد من جاء به وجعل يمسح الدمع عن وجهه ثم قال:

ضربوا قرة عيني ... ولأجلي ضربوه
أخذ الله لقلبي ... من أناس أحرقوه

وأراد الزيادة عليها فلم يواته طبعه، فقال للفضل بن الربيع: من ههنا من الشعراء؟ قال: الشاعر عبد الله بن أيوب التميمي. فقال: عليّ به. فلما دخل أنشده البيتين وقال: قل عليهما. فقال:

ما لمن أهوى شبيهُ ... فبه الدنيا تتيهُ
وصلهُ حلو ولكنْ ... هجرُهُ مُر كريهُ
من رأى الناس له الفضل ... عليهم حسدوه

(١) هو صياح الثعلب والذئب وغيرهما، ثم كثر حتى قيل للإنسان إذا شق عليه فاستغاث أو بكى بصوت ذليل.

(٢) انظر: تاريخ بغداد للخطيب (٣/٣٣٩).

مثل ما قد حسد القائم بالملك أخوه[1]

فقال محمد: هذا والله خير مما أردت، بحياتي عليك يا عباسي إلا نظرت، فإن كان جاء على الظهر ملأت أحمال ظهره دراهم، وإن جاء في زورق ملأته له. فأوقر له ثلاثة أبغُل دراهم، وغناه ليلة إبراهيم بن المهدي[2]:

يا أمين الله عش أبدًا دُمْ على الأيام والزمن

أنت تبقى والفناء لنا فإذا أفنيتنا فكُن

فقام من مجلسه وأكب عليه وقبل رأسه، فقام إبراهيم فقبل أسفل رجليه وما وطئتا عليه من البساط، فأمر له بثلاثة آلاف دينار. فقال إبراهيم: يا سيدي: قد أجزتني إلى هذه الغاية بعشرين ألف الف درهم، قال: وهل هي إلا خراج بعض الكور[3].

وقال يومًا لبعض غلمانه: ويحك، أما تغسل ثيابك، قُم وخُذ ثلاثين بدرة[4] واغسل بها ثيابك؛ فذهب وقبضها.

ورأى رجل ليحيى بن خالد رؤيا أيام الهادي فأخبره، فخاف يحيى أن يكون دُس عليه فانتهره وتوعده، فلما استُخلف الرشيد دخل إليه، وكتب إلى بعض العمال فدفع إليه خمسمائة ألف درهم.

وسأل يحيى مؤدب ابنه إبراهيم عن حاله فقال: تعلم كذا، وحفظ كذا، واتخذ له من الضياع كذا. قال: لم أسألك عن هذا فقال: عم يسأل الوزير؟ قال: اتخذت له مِننًا في أعناق الرجال؟ قال: لا؛ قال: بئس الخليط أنت. فأمر بحمل خمسمائة ألف درهم إليه ليُفرقها عنه في الناس. قال: فو الله لقد فرقنا في أقوام ما ندري من هم.

وكان محمد بن خالد بن برمك ما يستام عليه سائم إلا قبله، ونهى وكلاءه عن المكاس؛ وكان الجديُ يُشترى له بألف درهم؛ وباقةُ الريحان بخمسمائة درهم.

---

(١) يعني: المأمون.

(٢) انظر: الأغاني (٤/٥٨).

(٣) يعني المدن.

(٤) يعني كيس يكون فيه قدر معين من النقود.

وكان الفضل بن يحيى أمر بأن تحمل صُرر الدنانير فتلقى في عتب أبواب جيرانه بالليل، فإذا أصبحوا وجدوها، فرُبما بلغ ذلك في الليلة الواحدة مائة ألف ... وكان إذا جاء الشتاء تصدق بجميع ما في خزائنه من كسوة الصيف، وإذا جاء الصيف تصدق بجميع ما فيها من كسوة الشتاء. وما روى مثل هذا الجود عن أحد في أول ولا آخر، فقال فيه أبو قابوس الحيري:(١)

رأى الله للفضل بن يحيى فضيلة ففضله، والله بالناس أعلمُ

له يوم بؤس فيه للناس أبؤس ويومُ نعيم فيه للناس أنعمُ

وقال أبو النضير [عمر بن عبد الملك]:

ويفرح بالمولود من آل برمك بُغاة الندى والرمُح والسيفُ ذَو النصل

وتنبسط الآمال فيه لفضله، ولا سيما إن كان من ولد الفضل

وقال آخر:

إذا نزل الفضلَ بن يحيى ببلدة، رأيت بها عُشب السماحة ينبُتُ

ووجه المأمون إلى طاهر بن الحسين بمائة ألف دينار، فصادفه الرسول وهو راكب فثنى رجلهُ على ظهر فرسه فقسمها وسار ولم يبق منها دينار واحد.

وأخبرنا أبو القاسم بن شيران؛ عن عبد الرحمن بن جعفر، عن الغلابي، عن إبراهيم، عن الأصمعي قال: لما ولدت ابنة جعفر محمدًا قال مروان بن أبي حفصة:

لله دُرك يا عقيلة جعفر ماذا ولدت من الندى والسُؤدُد

إن الخلافة قد تبين نُورُها للناظرين على جبين مُحمد

إني لأعلمُ إنه لخليفة إن بيعةٌ عُقدت وإن لم تُعقد

فأمر له هارون بثلاثة آلاف دينار، وأمرت زبيدة أن يحشى فُوهُ جوهرًا فكانت قيمة الجوهر عشرة آلاف دينار.

وأخبرنا أبو القاسم، عن عبد الرحمٰن، عن الغلابي، عن سعيد بن محمد الخراساني قال: دخل ابن أبي المخيس على المهدي، وكان أعرابيًا بدويًا، فأنشأ يقول:

---

(١) انظر: المستطرف (١/٥٠٠).

خلـــيفة الله المَصـــفى بالكـــرم يـــا خـــير مـــن طـــبق نعـــلاً بقـــدم
فـــدتك نفســـي مـــن معاريض السقم عُـــذتُ بقـــير الهاشمـــي بالحـــرم
بقـــبر عـــبد الله ذي الأنـــف الأشـــم وعـــذت بالمهـــدي مـــن ديـــن جثم
علـــى حـــتى سُـــل جســـمي فانهـــدم فجـــل عـــني غُمـــة مـــن الغُمـــم

فقال المهدي: نعم ملاذُ خلتك يا بن أبي المخيس. حاجتك؟ قال: ديني. قال فكم هو؟ قال: خمسة آلاف درهم، قال: يا غلام: أعطه إياها. فلما رأى أنه قد أمر له بها، التفت إليه وقال: بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا جعلتها دنانير، قال: اجعلوها دنانير:

وأخبرنا أبو القاسم، عن عبد الرحمن، عن الغلابي، عن الزبير قال: استنشد المهدي جدي عبد الله بن مُصعب نسيبًا حلوًا فأنشده قول الأحوص[1]:

خمـــس دســـن إليّ في لطـــف حُـــور العُـــيُون نـــواعم زُهـــر
فطـــرقتهن مـــع الرســـول وقـــد نـــام الـــرقيبُ، وحلـــق النســـر
مســـتبطنًا للحـــي إن فـــزعوا عضـــبًا يلـــوح بمتـــنه أثـــر
فمكـــثن ليلـــتهُن ناعمـــة حـــتى اســـتفقن وقـــد أضـــا الفجـــر
بأشـــم، معســـول مُـــزاحتهُ، غـــض الشـــباب، رداؤه غمـــرُ
زول بعـــيدُ الصـــيت مُشـــتهرُ جابـــت لـــه جـــيب الدُجـــى عمـــرُ
قامـــت تُخاصـــره لكلـــتها تمشـــي الـــتأود غـــادة بكـــر
ســـيفانة أشـــر الشـــباب بهـــا رقـــراقة لم يُـــبلها الدهـــر
وتـــراجعا مـــن دُون نســـوتها كلمـــا تُســـر كأنهـــا ســـحر
كُـــل يـــرى: أن الشـــباب لـــهُ في كـــل غايـــة صـــبوة عُـــذْرُ

(١) انظر: الأغاني (١٧/٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٥٥).

حـــتى إذا أبــــدى مـــــودتها ... وبـــدا هــــواها مالــــهُ ســـتر[١]
ســـفرتْ ومـــا ســـفرتْ لمعْـــرفة ... وجهـــا أغـــر كأنـــه الـــبدرُ

وأنشده لصخر بن الجعد [الخُضري]:

هنيـــئًا لكـــأس قطعهـــا الحـــبل بعدما ... عقـــدنا لكـــأس مـــوعدًا لا نخُـــونُها
وإشماتهـــا الأعـــداء حـــين تألـــبُوا ... حـــوالي، واشـــتدت عليَّ ضغونها[٢]
فـــإن تصـــرمي، وكلت عيني بالبكا، ... وأشمـــت أعدائـــي فقـــرت عـــيونها
فـــإن حـــراما أن أخـــونك؛ ما دعا ... مـــع اللـــيل قَمـــريُّ الحمام وجوُنها
ومـــا طـــرد الليلَ والنهار، وما بكتْ ... علـــى شـــجر ورقـــاء شـــاج رنينُها
وقـــد أيقـــنت نفســـي بأن حيل بينها ... وبيـــنك لـــو يـــأتي بـــيأس يقيـــنُها
ولكـــن أبـــتْ أن تستفيق، ولا ترى ... سُـــلوا ولا مجلـــود صـــبر يُعيـــنها
لـــو أنـــا إذ الدنـــيا بـــنا مطمئـــنة ... دجـــا ظلـــها ثم ارجحـــنت غُصونها
هـــونا، ولكـــنا بغـــرة عيشـــنا ... عجبـــنا لدُنـــيانا فكـــدنا نعيـــنُها
وكـــنا إذا نحـــنُ التقيـــنا، وما نرى ... لعيـــنين إلا مـــن حجـــاب يصـــونها
أخـــذنا بأطـــراف الأحاديـــث بينـــنا ... وأوســـاطها حـــتى تُمـــل فـــنونُها

فأعطاه سبعة آلاف دينار.

وأخبرنا أبو القاسم بن شيران، عن عبد الرحمن بن جعفر، عن الغلابي، عن جعفر بن أحمد النوفلي، عن محمد بن أيوب بن جعفر بن سليمان قال: كان بالبصرة فتى من بني تميم، وكان شاعرًا ظريفًا فاستشارني في مدح المأمون وقصده، فلم أشر عليه به؛ لقلة رغبة المأمون التي كانت في الشعر؛ فقال: رُبما زهد الرجل في الشيء ثم أقبل عليه. فخرج والمأمون بسلغوس[٣] قال: فخرجت بسحر نحو العسكر فلقيت

(١) انظر: الأغاني (١٧/٣٥٣).
(٢) أي حقدها.
(٣) انظر: تاريخ الطبري (١٠/٢٩٧، ٢٩٨).

رجلاً على بغل أسود ما رأيتُ مثله، فسألني عن مقدمي، فذكرتُ له أنني قصدتُ المأمون بشعر خفيف حلو؛ فاستنشدنيه فقلت: إنما قصدت الخليفة، فقال: أنشدنيه فإن كان على ما تصف لأصلنك، ولأحملنك على بغلي هذا، فأنشدته[1]:

مأمـون: يـا ذا المـنن الشـريفهْ   وصـاحب المـرتبة المَنـيفهْ
وقائـد الكتيـبة الكثـيفهْ   هـل لـك في أرْجـوزة ظـريفهْ
أظـرف مـن فقـه أبي حنـيفهْ   لا والـذي أنـت لـه خلـيفهْ
مـا ظَلمـت في أرضـنا ضـعيفهْ   أميرُنـا مُؤنـتهُ خفـيفهْ
مـا يجـتبي شـيئًا سـوى الوظـيفهْ   فالـذئبُ والـنعجةَ في سـقيفهْ
واللص والتاجر في قطيفهْ

قال: فضحك واستطاب الشعر، وأومأ إلى واحد من غلمانه فجاء يركضُ، فقال: كم معك؟ قال: ثلاثة آلاف دينار، قال: ابذُلها إلى السعدي. ثم قال: وفينا لك؟ قلتُ: والله ما هذا وفاء، هذا عطاء البحر إذا زخر، وضرب كفل بغله وانصرف.

فهؤلاء أيدك الله أعطوا هذا الكثير ولم يحظوا من الذكر بما حظى به مُعطى القليل. فليس ينبغي أن يُستَحْي من إعطاء ما كسب مثله الذكر الباقي في الأعقاب، المستغرق لمدى الأحقاب، الذي لا تقدح فيه الأزمان، ولا تتحيفه صُروف الحدثان، وأنشدنا أبو أحمد، عن أبي بكر:

وكـنتُ إذا دُعـيتُ إلى طعـام   أجـبتُ، ولم يكُـنْ مـني تـوان
ظللـنا مـن بشاشـتنا كأنـا   بـيوم لـيس مـن هـذا الـزمان

فذكر أنه إذا دُعي إلى طعام لم يكد في تحصيله سُرَّ سرورًا وبشَّ بشاشة ليس له بمثلها عهد في زمانه. روي عن عمر ﷺ أنه قال: كنا نعد المقرض بخيلا، إنما كانت مواساة. ومما هو داخل فيما نحن فيه قول أبي هريرة ﷺ: «**إن صدقة أحدكم يقبلها الله ويربيها كما يُربي أحدُكم فلوهُ وفصيلهُ، حتى اللقمةُ تصير مثل أُحُد**».

وقالت بعض النساء: يا رسول الله: إنه يأتيني السائلُ فأتزهد له بعض ما عندي،

---

(١) انظر: ثمار القلوب في المضاب والمنسوب للثعالبي (ص ١٧٠).

فقال: ضعي في يد المسكين ولو ظلفًا مُحرقًا.

وقال عبد الله بن مسعود: كان راهب عبد الله ستين سنة، فنزلت به امرأة فواقعها ست ليال، ثم ندم فهرب، فأتى مسجدًا فمكث ثلاثًا لا يطعم، فأتى برغيف فأعطى نصفه رجلاً عن يمينه، ونصفه رجلاً عن يساره، ثم قبضه الله؛ فوضع عمل ستين سنة في كفة، ووضعت السيئة في كفة فرجحت فجيء بالرغيف فرجح بالسيئة.

وكان عند عائشة طبق عنب، فجاء سائل فدفعت إليه حبة واحدة منه، فضحك نساء كن عندها فقالت: إنما فيما ترين مثاقيل ذر كثيرة، أرادت قول الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وسأل رجل ابن عبيد الله بن زياد فأعطاه درهما، فقال أصلح الله الأمير، صاحب العراق وخليفة أمير المؤمنين يُعطي درهما، فقال: نعم، إن من بيده خزائن السموات والأرض ربما رزق أخص عباده وأقربهم منه وسيلة اللقمة والتمرة، فما يكبر عندي أن أصل رجلاً من إخواني بمائة ألف درهم، ولا يصغُر عندي أن أُطعم سائلاً رغيفًا – إذا كان الجواد الكريم يفعل ذلك.

ومثلُ هذا الخبر خبرُ المنصور مع «سلم الحادي» وقد ذكرناه في «كتاب الدينار والدرهم» ونورده ههنا لمجانسته ما قبله. وهو الذي أخبرناه أبو أحمد، عن عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن بن الفضل، عن إبراهيم بن السندي بن شاهك، عن الفضل بن الربيع، عن أبيه قال: حدا «سلم الحادي» بين يدي أبي جعفر بطريق مكة وهو حاج:

أغر بين حاجبيه نوره ... إذا تغدى رُفعت ستوره
يزينه حياؤه وخيره ... فتى، قليل في الورى نظيره
يضحك من بهائه سريره ... ومسكه يشوبه كافوره
أودى الصبا، ونفدت زهوره، ... والقلبُ قد ألهبه سعيرهْ
والحب داء هالك أسيره ... لا شيء يردي الهمم أو يثيره
إلا رواح الصب أو بكوره ... فوق خدب جائل ضفوره[1]

---

(١) الخدب من الأباعر الصلب الشديد الضخم والضفور جمع ضفر وهو ما يشد منه البعير من =

قال فاستحسن أبو جعفر الأبيات وضرب برجله وقال: يا ربيع: أعطه نصف درهم، فقال: يا أمير المؤمنين: نصف درهم؟ لقد حدوتُ بها بين يدي هشام فأمر لي بمائة ألف درهم، فقال: مائة ألف درهم من مال الله! ما كان له أن يعطيكها، وما كان لك أن تأخذها؛ يا ربيع! استخرجها منه. قال: يا أمير المؤمنين: قد والله وصلتُ بها القرابة، وحملت بها الكل، وأنفقتها على الولد، وما بقى منها شيء. قال: فما زلتُ أسفرُ بينه وبينه حتى ضمن أن يحدُو به ذاهبًا وجائيًا، ولا تلزمه مئونة؛ فقلت بعض الشعراء هذا المعنى فقال:

كويــــتب يــــرفعهُ تصـــغيرهُ كأنمـــا تصـــغيرُه تكـــبيرهُ
لم يُـــر في ســـقُوطه نظـــيرُهُ الكلـــبُ مـــن أخلاقـــه يمـــيرُهُ
والقـــردُ يحكـــيه ويســـتعيرُهُ أقـــبح مـــن ظاهـــره ضـــميرُهُ
إذا تغـــدى أطـــبقت سُـــتُورُهُ وسُـــمرتْ أبـــوابهُ ودُورُهُ
وحُرســـتْ حـــيطانُه وســـوره والديـــدبانُ فـــوقها ناظـــورُهُ[1]
وقـــام عـــند ســـتْره نذيـــرُهُ لا يقـــربُ الـــباب ولا يطُـــورُه[2]
خلـــق مـــن الـــناس، ولا يـــزُورُهُ إلا شـــقي غـــره غُـــرورُهُ
فـــإن دنـــا أحـــرقهُ ســـعيرُهُ وكُســـرتْ ســـاقاهُ؛ لا يُجـــيرُهُ
خلـــق، ولا يُرجـــى لـــه جُـــبُورُهُ حـــتى إذا اســـتوفي وطـــم بـــيرُهُ[3]
ثم عـــلا مـــن قظـــة زفـــيرُهُ وأحْصِـــنَتْ مـــن بعـــدها قُـــدُورُهُ
وأثبـــتتْ مـــن خُبْـــزِه كُسُـــورُهُ وحصُـــلت فضـــلاته وسُـــورُهُ
ودار في الـــدار بهـــا وزيـــرُهُ وصـــار في ديـــوانه تـــوفيرُهُ

عاد إليه عائدًا سُرورُهُ

=
الشعر المضفور.

(١) الناظور: حافظ الزرع.

(٢) يعني: دام حوله ودنا منه.

(٣) طمَّ: امتلأ.

قال: وسمعت أصحابنا يتحدثون أن رجلاً حمل لرجل حملاً وبلغ به غاية بعيدة، فأعطاه «قيراطًا» فاستحقره واستزادهُ، فقال: أتستحقره، وإنك لو اشتريت به رغيفًا فأكلته دفعت به يومك، وكسبت عليه أضعافه؟ أو قربة ماء كفاك في شربك وطهورك يومين؛ أو باقة بقل زينت بها مائدتك، وطبت في أكلك؟ أو ملحًا أجزاك في طبيخك وغيره أيامًا؟ أو أشنانًا كفاك في تطييب يدك مُدة؟ أو دخلت به الحمام نقيت جسدك؟ أو ابتعت به الصابون نظفت به ثوبك؟ أو احتجت إلى عبور نهر كان مقنعًا لملاحك، إلى غير ذلك من المنافع؟ لقد صغرت عظيمًا، واستحقرت جسيمًا. فانطلق لرجل به ولم يماكسه.

وقريب من ذلك أن رجلاً قال لرجل: ادفع لي دريهما، فقال: أتصغره؟ إنه عشر العشرة، والعشرة عشر المائة، والمائة عشر الألف، والألف عشر ديتك.

وذكر أن بعض الهاشميين زار محمد بن بشير فأحضره خُبزًا قد أتت عليه أيام، وتمرات، فقال الهاشمي: هذا جود الأذواء، يريد أنه من اليمن، فقال محمد:

لقـــل عـــارًا إذا ضـــيف تضـــيفني ... مـــا كـــان عندي؛ إذا أعطيتُ مجهُودي
جُـــودُ المُقـــل إذا أعطـــاك نائلـــه، ... وُمكـــثير في الغـــنى، ســـيان في الجود

وقال غيره:

أُقِـــل وأُثـــرى، كـــل ذاك يســـرني؛ ... وللدهـــر والإنســـان حـــال تقلـــبُ
ويلـــزمُني حـــق فـــلا أســـتطيعهُ، ... ولا يـــنفع الـــراجين أهـــل ومـــرحبُ
ومـــا أبطـــل الإعـــدامُ حقًا لراغب، ... ولكـــنه في حالـــة اليُســـر أوجبُ[1]

ومثل هذا أيدك الله كثير، وفيما سقته إليك كفاية لك، إن شاء الله تعالى.

(١) انظر: البيان والتبيين للجاحظ (١٤٧٣/١).